«طوفان الأقصى» والمتغيرات التي طرأت على واقع الإقليم!!

رجا طلب

• مقدمة:

لم يكن طوفان الاقصى فعلا عسكريا تقليديا مثلما هو حال المواجهات الفلسطينية – الاسرائيلية منذ ٧٥ عاما بل كانت هذه المواجهة التى دخلت عامها الاول قبل عدة ايام مواجهة على عدة مستويات عسكرية وسياسية وانسانية واعلامية شغلت العالم على مدى عام كامل واحتلت المساحة الاكبر والاوسع في تاريخ الدبلوماسية الاميركية (١٠ زيارات فاشلة لانتوني بلينكن للمنطقة) والتى تاتي بالترتيب بعد زيارات هنري كيسنجر من اجل بناء السلام بين مصر واسرائيل خلال حقبة السبعينات، كما شغل طوفان الاقصى ايضا شوارع العالم وشعوبه ربما كاكثر قضية راي عام في عصرنا الحديث واعاد هذا الانشغال الاهتمام والحضور السياسي والانساني للقضية الفلسطينية التى كادت ان تدخل «ثلاجة الموتى» بعد مشروع «صفقة القرن» لترامب و«اتفاقيات السلام الابراهمية» في المنطقة.

حماس قبل وبعد الطوفان:

احدث طوفان الاقصى في السابع من اكتوبر هزة كبرى ومفاجئة لدى العديد من الاطراف في الشرق الاوسط وبخاصة للغاية من قادة حماس في غزة يعلمون به، اما الذين نفذوا الهجوم من قوات القسام فالمعلومات تتحدث عن انهم علموا بالهجوم قبل ساعات قليلة من بدئه وتم عزلهم تماما لمنع تواصلهم مع العالم الخارجي وسُحبت منهم الهواتف النقالة لضمان الحفاظ على السرية التامة لحين بدء الهجوم.

ابرز سمات طوفان الاقصى:

استطيع القول ان حماس وبهجوم طوفان الاقصى كسرت عدة قواعد اعتمدتها دولة الاحتلال منذ عام ١٩٤٨ وبخاصة اسس نظرية الامن القومي الاسرائيلي التى وضعها بن غوريون والقائمة على ثلاثة مرتكزات وهي:

- قوة الردع
- التفوق الاستخباري
- الحسم السريع

فاجأت قيادة حماس في الخارج باستثناء الشهيد اسماعيل هنية (رئيس الحركة وقتذاك) حيث كان الوحيد الذي علم بخطة الهجوم وتكتم على القرار، فيما كان عدد محدود للغاية من قادة حماس في غزة يعلمون به، اما الذين نفذوا الهجوم من قوات القسام فالمعلومات تتحدث عن انهم علموا بالهجوم قبل ساعات قليلة من بدئه وتم عزلهم تماما لمنع تواصلهم مع العالم الخارجي وسُحبت منهم الهواتف النقالة لضمان الحفاظ على السرية التامة لحين بدء الهجوم.

عمليا كُسرت المرتكزات الثلاثة المشار اليها في العدوان الاسرائيلي على غزة، فهذه الحرب امتدت لعام كامل والتقديرات انها قد تمتد الى ما بعد الانتخابات الاميركية ودخول رئيس جديد الى البيت الابيض في عام ٢٠٢٥، وسجلت عملية طوفان الاقصى اكبر وافدح فشل استخباري في تاريخ دولة الاحتلال منذ عام ١٩٤٨، يضاف لماسبق الفشل في تحقيق «الحسم السريع» وها هي اسرائيل تخوض الان حرب استنزاف طويلة مع حركة حماس كلفتها المالية حسب تقرير لصحيفة كالكاليست الإسرائيلية المختصة بالاقتصاد بلغت ما بين ١٣٠ مليار شيكل (٣٧ مليار دولار) إلى ما بين ١٤٠ و١٥٠ مليار شيكل اي حوالي (٣٩,٥ – ٤٢,٤ مليار دولار) كما اشارت الصحيفة إلى أن هذه التكاليف لا تشمل إمكانية ثمن عملية برية في لبنان (بدات مع كتابة هذا التقرير) أو مواجهة مباشرة مع إيران، وهو ما يعني أن التكلفة قد ترتفع أكثر حال حدوث تصعيد إضافي، اما على مستوى الخسائر البشرية وهو الامر المهم والحساس جدا لدى اسرائيل فقد بلغت تلك الخسائر اكثر من ١٢٠٠ قتيل منهم قرابة ٧٢٠ من جيش الاحتلال والرقم قابل للزيادة مع استمرار القتال.

ماساة غزة!!

في المقابل كانت حصيلة عام من العدوان الاسرائيلي على غزة، حصيلة ماساوية دمر خلالها الاحتلال ٨٠ ألف وحدة سكنية تدميرا كاملا من ضمن ٣٧٠ ألف وحدة تضررت بفعل القصف الإسرائيلي، وفقا للتقرير الصادر عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ولجنة الأمم المتحدة الاقتصادية والاجتماعية لغرب آسيا وتسبب هذا الدمار في تشريد ١,٧ مليون شخص حتى ٢ أبريل ٢٠٢٤ الماضي حسب منظمة الصحة العالمية وتحتاج إعادة بناء جميع المنازل في حال توقفت الحرب الى ١٦ سنة أي حتى عام ٢٠٤٠، كما تم تدمير أكثر من ١١٧ مدرسة وجامعة كليا، و٣٣٢ مدرسة وجامعة جزئيا حسب مركز الإحصاء الفلسطيني، والتي تحولت إلى مراكز لإيواء آلاف النازحين اما اعداد الشهداء من المدنيين فقد بلغ اكثر من ٤٢ الف شهيد وقرابة ٨٤ الف جريح.

من المنتصر ومن المهزوم؟

مع بداية العدوان على قطاع غزة اعلن بنيامين نتنياهو عن اهداف هذا العدوان والمتمثلة بما يلي:

- القضاء على حركة حماس.
- استعادة الاسرى.
- ضمان عدم تشكيل غزة تهديدا لاسرائيل في المستقبل.

وفي مطلع سبتمبر الماضى اعلن نتنياهو عن هدف جديد الا وهو عودة سكان مستوطنات وقرى شمالي فلسطين المحتلة الى بيوتهم عبر ردع «حزب الله»، وغلف كل هذه الاهداف بعبارة «النصر المطلق»، غير ان معطيات الواقع تقول ان نتنياهو بات اليوم غارقا هو وجيشه في رمال غزة وفي وحل لبنان وان تلك الاهداف لم تتحقق بعد، وهو ما يجعلني اتساءل هل عدم تحقيق تلك الاهداف هي هزيمة لنتنياهو ونصرا لحماس وحزب الله ام هي حلبة صدام دموية رمادية لم يحقق فيها اي من الطرفين نصرا على الطرف الاخر الى الان؟

اللاعبون الاقليميون:

• الاردن ومصر:

بحكم الواقع الجيوسياسي لغزة والضفة الغربية المشتعلة منذ ٧ اكتوبر فان الاردن ومصر هما طرفان اساسيان معنيان بما يجرى، وعمليا ما يؤرق الطرفين هي السياسات اليمينية المتطرفة في غزة وفي الضفة ايضا هو «التهجير» وعمليا بدا الاحتلال في غزة بخلق بيئة طاردة وقاتلة من خلال الابادة الجماعية وتدمير البنى التحتية والتجويع وتجاهل انتشار الامراض والاوبئة بين الغزيين، ويعد التهجير لدى الاردن ومصر خطرا على الامن القومي للطرفين مما جعل الاردن وعبر تحركات جلالة الملك ووزارة الخارجية يركز كل جهوده ويوظف كل علاقاته الدولية لفضح هذا الهدف ومنع حدوثه وهو ما انعكس بصورة مباشرة على العلاقة مع اسرائيل وانتقالها من مرحلة البرود والفتور الذي عاشته لسنوات طويلة الى محطات من الصدام الدبلوماسي والتوتر الشديد في العلاقة، وعمليا كانت هذه هي السمات الاساسية للعلاقات الاردنية – الاسرائيلية لكل سنوات حكم نتنياهو سواء في المرحلة الاولى (١٩٩٦ – ١٩٩٩) او المرحلة الحالية والممتدة من عام ٢٠٠٩ والى اليوم.

ومثلما هو حال الاردن كان حال مصر التى وبحكم التشابك التاريخي والديمغرافي مع قطاع غزة والجوار الجغرافي له فقد انخرطت في دور الوساطة لنزع فتيل الحرب واعادة الاستقرار للقطاع تماشيا مع دورها هذا منذ عام ٢٠٠٨ الى اليوم بالاضافة لدورها في جولات المصالحة الفلسطينية بعد الانقسام الحاد والصدام المسلح بين فتح وحماس في عام ٢٠٠٧.

يعد منع التهجير من غزة الى سيناء هو الهدف الاساسي الذي تعمل عليه مصر ولا تبدي اي تهاون في منعه خاصة مع تزايد دعوات اليمين بشقيه الديني والقومي للبدء بمشاريع استيطان في قطاع غزة وطرد سكانه بعد انتهاء الحرب وهو ما تسبب ايضا بفتور ملحوظ في العلاقة بين القاهرة وتل ابيب.

• قطر وتركيا:

اما بخصوص اللاعبين الابعد جيوسياسيا نجد ان قطر ومعها تركيا لاعبان اساسيان رغم البعد الجغرافي وبخاصة قطر التى ارتبطت ومنذ ١٩٩٩ بعلاقة قوية مع قيادة حركة حماس في غزة وباتت الدوحة الداعم الاهم للحركة ماليا وسياسيا، اما تركيا فهي وبحكم الايدولوجيا السياسية – ذات التوجهات الدينية القريبة من حركة الاخوان المسلمين فشكلت هي الاخرى حالة داعمة لحماس ووفرت ملاذا آمنا لعدد كبير من قياداتها وتصادمت دبلوماسيا بصورة علنية وقوية مع حكومة نتنياهو في المحافل الدولية بسبب هذا التوجه، اما قطر فقد وظفت دورها للقيام بدور الوسيط بين حماس واسرائيل على ارضية الحفاظ على مصالح الحركة بصورة اساسية وقدمت لحماس ما يقارب من ١,٨ مليار دولار منذ بداية الالفية الحالية بشكل علني وبموافقة الجانب الاسرائيلي، غير ان مواقف قطر الداعمة لحماس خلال عام من طوفان الاقصى تسبب بتوتر كبير في العلاقات مع حكومة نتنياهو وهو ما جعل هذا الاخير يعمل على عرقلة الجهود القطرية – المصرية لايجاد تسوية للوضع في غزة وتخريب كل فرص عقد صفقة تبادل للاسرى تنهي الحرب وهي التي باتت بالنسبة له بمثابة نوع من انواع الهروب الى الامام وكسب الوقت بانتظار فوز ترامب او تحقيق ما اسماه النصر المطلق.

• ايران اللاعب الاخطر:

منذ نجاح الثورة الايرانية والاطاحة بشاه ايران محمد رضا بهلوي عام ١٩٧٩ تبني قائد الثورة الامام الخميني مبدأ «تصدير الثورة» للخارج وهو ما سبب العداء مبكرا لايران كما ان هذا المبدأ تعثر تطبيقة على ارض الواقع وبقوة لسنوات طويلة بسبب الحرب الايرانية مع العراق (سبتمبر ١٩٨٠ الى اغسطس ١٩٨٨) الا ان ايران كانت وخلال الحرب تعمل على بناء تنظيمات تابعة لها في دول الجوار وبخاصة الكويت والمملكة العربية السعودية ولبنان وجرى تاسيس حزب الله عام ١٩٨٢ والذي اصبح منذ ذلك التاريخ الذراع الطولى والاقوى لايران في الخارج، كما تعزز دور طهران الاقليمي وازدادت قوته بعد الاطاحة بصدام حسين عام ٢٠٠٣ ونجحت طهران في السيطرة على العراق وبناء نظام سياسي تابع لها وهو امر زاد من قوتها اكثر واكثر، وتضاعفت هذه القوة بعد الحرب في سوريا عام ٢٠١١ والتى تدخلت فيها ايران بشكل مباشر امنيا وميليشاويا لدعم نظام بشار الاسد ولتصبح ايران بذلك قوة اقليمية وازنة «تشاكس» السياسة الاميركية في الخليج والاقليم وتشكل حالة ندية ومنافسة لاسرائيل وطموحاتها.

منذ الثامن من اكتوبر دخلت ايران على خط الحرب في غزة عبر حزب الله وجبهة الاسناد التى اعلن عنها الامين العام السابق لحزب الله حسن نصر الله وتسبب هذا الاسناد في تهجير سكان شمالي فلسطين والبالغ عددهم قرابة ٦٠ الف مستوطن اسرائيلي تركوا قراهم وبيوتهم ولم يعودوا اليها الى الان.

لقد فرض واقع مستوطنات شمالي فلسطين المحتلة على نتنياهو اضافة هدف جديد لاهداف الحرب الا وهو (عودة سكان الشمال لبيوتهم) وهو ما بدأ جيش الاحتلال بتنفيذه عبر عدد من عمليات الاغتيال التى طالت عددا كبيرا من قياديي حزب الله كان ابرزهم حسن نصر الله، مما جعل ايران تدخل بقوة على خط المواجهة مع اسرائيل وتوجه لها ضربة عسكرية مطلع اكتوبر الجاري وصفت بالقوية والاكثر دقة من تلك التى تمت في ١٤ ابريل الماضي.

واقع الحال يؤكد ان الحرب بين ايران وحلفائها من جهة واسرائيل من جهة ثانية قد بدات وبكل تاكيد فانها في كل الاحوال ستعيد رسم الاقليم من جديد وفق النتائج المترتبة على هذه المواجهة التى مازالت مفتوحة والتى لن تخرج عن الحالات التالية: اما «منتصر، او «مهزوم» او «مرتدع».

ابرز الاستخلاصات العامة:

- كسر قوة الردع الاسرائيلية خلال عام من طوفان الاقصى وهو ما استدعى من اسرائيل الرد على ذلك بتدمير غزة وربما يصل الامر الى تدمير جنوبي لبنان لاستعادة قوة الردع من جديد (اعتماد نموذج غزة).
- انهيار مريع لمبدا تفاني دولة الاحتلال في حماية مواطنيها وفي استرجاع اسراها مهما كان الثمن وابرز مثال على حالة التفاني هذه وقد تكون الحالة الاخيرة كانت صفقة «شاليط» والتى تضمنت الافراج عن ١٠٢٧ أسيراً فلسطينياً مقابل أن تفرج حركة حماس عن الجندي الإسرائيلي الأسير جلعاد شاليط.
- انكشاف العجز الاسرائيلي بشكل ملفت وانه لولا تدخل الولايات المتحدة ومساندتها المالية والعسكرية لتل ابيب لكانت هذه الاخيرة قد عجزت عن توفير حماية امنها القومي حيث بلغ حجم الدعم العسكري الاميركي لها ٥٠ الف طن من الاسلحة المختلفة والمتنوعة بما فيها الطائرات الاحدث عالميا (F٣٥) حسب بيان للجيش الاسرائيلي في اغسطس الماضي.
- بروز نوعي لدور قوى المقاومة في رسم خرائط الصراع وحدوده وبخاصة حماس وحزب الله وحركة الجهاد الاسلامي والحوثيين.
- زيادة قوة النفوذ الايراني في الاقليم وهو ما سيؤدي الى زيادة الاستقطابات داخل المنطقة مستقبلا.
- بروز اسرائيل كقوة فوق القانون الدولي «كبلطجي» في المنطقة والاقليم وبلا رادع وامتلاكها اسلحة تدميرية هائلة وبخاصة سلاح الطيران اصبح يثير القلق العميق لدى بعض دولة المنطقة المتحالفة مع واشنطن لادراكها ان تل ابيب باتت هي الاولوية الاولى لدى واشنطن وان مصالحها وامنها اهم من مصالح الحلفاء العرب مجتمعين.

الاستنتاج

- القضية الفلسطينية هي القضية المركزية والمحورية لكل العرب على مدى ٧٥ عاما وبدون حل القضية الفلسطينية بما يحقق طموح الشعب الفلسطيني بالحرية واقامة دولته المستقلة وعاصمتها القدس الشرقية فان امن دولة الاحتلال سيبقى مخترقا ومتزعزعا وان لا ضمانات لهذا الامن او استقرار الحياة العامة فيها، كما ان الامن القومي العربي هو الاخر سيبقى عرضة للاختراق والتدهور وعدم الاستقرار.